

الفصل الأول

INTRODUCTION

المقدمة

INTRODUCTION TO THEORY

مقدمة للنظرية

تعد نظرية علم الجريمة فرصة لتحليل الطريقة التي ينظر بها الآخرون للجريمة ونقدتها عبر التاريخ، واليوم فإن السعي لفهم الجريمة هو أقرب إلينا في فهمها كما تظهر في العناوين الرئيسية للصحف والتقارير التلفزيونية. وكما سنرى، فإن النظرية هي ليست فقط معتقد شائع أو رأي أو تفسير يستند على قيمة، بل هي كما سنناقشها هنا هي منتج للمنهج العلمي.

إن الاستخدام الفعال للنظرية موجود في جميع النشاطات اليومية لنظام العدالة الجنائية، فقد صممت دوائر الشرطة نماذج دورياتهم استناداً إلى النظريات المختلفة التي تنتبأ بالأحداث الإجرامية. وكل يوم يصدر القضاة أحكاماً تستند لفهمهم لشخصية الجاني والبيئة التي يعيش فيها الجناة، وتقرر هيئات المحلفين فيما إذا كانت ستصدر عقوبات الإعدام استناداً إلى الافتراضات المتعلقة بخطورة الجاني المستقبلية، ويرسل الضباط المسؤولين عن الأحكام مع وقف التنفيذ المدانين إلى البرامج العلاجية لتحسين مهارات العمل لديهم وحل مشاكل إدمانهم على الكحول أو المخدرات. وتسعى سلطات السجون لغرس روح النظام وتعليمهم عادات العمل الصحيحة والملائمة وردع السجناء من الإجرام في المستقبل. وأخيراً، كما ينعكس من خلال وسائل الإعلام، فإن العامة على ما يبدو تعزو السلوك الإجرامي إلى العديد من الأمور مثل استخدام المخدرات والكساد الاقتصادي والحياة الأسرية الفقيرة وتأثير رفاق السوء. إن جميع هذه النشاطات والتفسيرات قد وجدت ضمناً في نظريات علم الجريمة المتنوعة وقد ظهرت آثارها خلال العقد المنصرم.

وكما ترى، فيجب أن لا تكون النظرية مجردة، وأضف إلى ذلك أنه وبالرغم من الرأي العام المضاد فالنظرية يمكن تطبيقها في العالم الواقعي. فنحن جميعنا نستخدم النظرية

وهي جزء من حياتنا اليومية. فعندما ترى غيوماً سوداءً أو داكنة في السماء ثم تقول أنها ستمطر فأنت بذلك قد عبرت عن نظرية. وللتأكيد، أنها نظرية بسيطة نسبياً، ولكنها تعبر عن العلاقات المتعلقة بالغيوم في العموم، والغيوم الداكنة، وسقوط حبات المطر من السماء. إن هذا التفسير البسيط يلتقي مع معيارين للاصدار المبسط من النظرية وهما: 1- استخدام الدليل الموضوعي والملاحظة المنتظمة و 2- التفسير العقلاني لذلك الدليل. وبعبارة أخرى فنحن نعلم من خلال ملاحظتنا أن الغيوم الداكنة مرتبطة بطريقة منظمة مع المطر، والشخص العقلاني سوف يفترض أنه إذا ظهرت الغيوم السوداء أولاً، فالمطر سوف ينزل لاحقاً. وبالمثل إذا كنت على وشك الخروج من الباب وشخص آخر في الجهة المقابلة من الباب قد برز للعيان فجأة وأحدث صوتاً مدوياً، (وتعرضت بعد ذلك لضربة في وجهك من الباب) فانت أقرنت أن صوت الشخص الذي كان في الجهة الأخرى من الباب كسبب لتوخي الحذر. ففي هذا المقام، أنت تتنظر استناداً على الأدلة (خبراتك السابقة) بأن تلك الأصوات تشير إلى وجود شخص ما يمكن ان يعقبه فتحهم الباب.

قد تكون النظريات بسيطة وقد تكون معقدة جداً، اعتماداً على عدد وأنواع العلاقات التي تعبر عنها. فالنظرية الأكثر تعقيداً للمطر قد تكون على النحو التالي: في ظل ظروف معينة، فإن السطح الخارجي للماء يتبخّر ويرتفع إلى الأعلى في الجو، وأن بعض الظروف الجوية تسبب تكاثف الماء، أولاً لتكون غيوماً ثم في نهاية المطاف تنزل على شكل قطرات من المطر. إن التعقيد في هذا النص من نظرية المطر هو في تحديد الظروف والعمليات والإجراءات المشاركة والمعنية في عملية التبخر والتكاثف.

والنظريات أيضاً إما مادية "واقعية" أو مجردة. فالنظريات عن المطر تميل أن تكون مادية حتى لو أنها معقدة. والنظريات المتعلقة بالسلوكيات البسيطة مثل رمي الكرة من خلال النافذة تميل أن تكون مادية (concrete) إلا أن النظريات المجردة (abstract) هي الأكثر صعوبة في عملية ربطها مع الواقع. فعلى سبيل المثال، فالنظرية النسبية لاينشتاين هي مفهوم أو معنى مجرد، ونجد صعوبة في الاختبار المباشر لها لمفهوم أن الوقت يصبح أبطأ كلما انتقل الشخص بسرعة أكبر، كما أنه من المؤكد أيضاً أننا لن نستطيع اختبار السرعات التي تتجاوز وتنفوق سرعة الضوء. وعلى نحو مشابهة، فالنظريات المتعلقة بتأثير البناء الاجتماعي على معدلات الجريمة تكون مجردة. فالبناء الاجتماعي يعد فكرة مبتكرة (نحن نشك في قدرتنا على مشاهدة البناء الاجتماعي بصورة مطلقة)، كما أن معدلات الجريمة هي مفهوم رياضي مشتق من قسمة عدد الجرائم على حجم السكان المعياري.

أهم شيء في النظريات هو أننا بحاجة إليها لنعيش أو نعيش بشكل أفضل. فالنظريات تمكنا من تطوير و فحص الحلول المحتملة للمشاكل التي قد تواجهنا في الحياة. صحيح أن هناك بعض المشاكل أكثر خطورة وحساسية من غيرها، فعلى سبيل المثال، معالجة ظاهرة الاحتباس الحراري مقابل من سيفوز في جائزة الاوسكار، ولكن هل نحن بحاجة إلى العديد من النظريات التي تعلمناها عن بيئتنا للتراكم المعرفي وتوزيع المصادر بصورة فعالة. تخيل كيف سيكون شكل الحياة إذ لا يمكنك أبداً تعميم الأشياء، تخيل إذا أنك في كل مرة ترى فيها غيمة على وشك أن تمطر، وافترض أنه لا يمكنك الاعتقاد أن الباب يمثل طريقاً إلى الدخول إلى البناية. النظريات في حقيقة الأمر هي تعميمات للنوع أو الشكل، فهي تفسر كيفية ارتباط حدثين أو أكثر مع بعضهما البعض والظروف التي تقع ضمن هذه العلاقات، فعلى سبيل المثال مقولة أن أحزمة الأمان في السيارات تقلل من حوادث السير تعبر عن حدثين إثنيين. فأحزمة الأمان لوحدها لن تقلل من الوفاة في أي حال من الأحوال، فيجب أن يتوفر شرط وضعها (يمكن إضافة أنه يجب تثبيت حزام الأمان بصورة ملائمة، وضعه بالشكل الصحيح، الخ).

الطريقة التي نعبر بها عن هذه التعميمات أو التفكير بالأشياء تعتمد على شكل المعرفة التي نستخدمها في وقت ما. فنحن نعرف الأشياء من خلال التجربة والخبرة (عادة ما يشار إليها "بالمعرفة التجريبية" (Empirical Knowledge)، الحدس، والحس العام أو العلم أو بسبب أن أحد ما قد أخبرنا أو (حتى من خلال كتاب مهم) قد أخبرنا عنه. فمثلاً يفترض أن تكون أسباب الجريمة معروفة من قبل الجميع، فهي تتضمن الأسر المفككة، وضعف الوازع الديني، والتسكع مع رفاق السوء، وسوء التشئة، وهكذا دواليك. وعلى الرغم من عدم احتمالية التفكير بهذه التفسيرات على أنها نظريات، إلا أنها جميعها موجودة. وبالوقت نفسه، هي ليست نظريات مبسطة جداً. لو كانت صحيحة، إذن كل شخص لديه واحداً من هذه الأسباب سوف يكون مجرمًا أو (منحرفاً)، ونحن نعلم بالطبع، أن هذا ليس صحيحاً. بل الأهم من ذلك كله هو حقيقة مثل هذه النظريات تفترض ضمناً العكس أيضاً، فالتناس الذين ينشئوا في بيئة أسرية جيدة، ويكونوا متدينين، ويرافقوا أصدقاء جيدين سوف لن يقدموا على فعل إجرامي أو سلوك جانح، وهذا أيضاً ليس صحيحاً. حيث تشير دراسات التقرير الذاتي إلى أن الشباب الصغار قد قاموا بفعل ما ضد القانون في وقت واحد أو آخر (Reiss&Rhodes,1961 Akers,1964; Gold,1970 Reiss& Nye,1958).

والمشكلة في معظم نظرياتنا ليوم بيوم (day-to-day theories) هي أنها في الغالب غير منطقية، أو أنها نتاج الملاحظات الانتقائية. وربما تعمل بعض الوقت، وحتى أنها غالباً ما تكون كافية لاستخدامها كقاعدة عامة في اتخاذ القرارات. ولكن عندما نحتاج أن نكون أكثر دقة وأكثر وعياً وانتبهاً لوضع السياسات، فإن هذه النظريات ستفشلنا. السلوك الإنساني معقد، وأن أي نظرية مبسطة ستكون غير صحيحة. ولهذا تميل النظريات ذات الصلة بالجريمة والمجرمين أن تكون معقدة ومستتدة على ماذا نعرف (أو في حال النظريات الأقدم على ماذا عرفنا في وقت ما) من البحوث والدراسات المتعلقة بالجريمة والمجرمين. هذه إذن هي سمات وخصائص النظريات العلمية التي بطبيعتها لا تشترك مع نظريات كل يوم. في الواقع نظريات كل يوم (Everyday theories) تكون تأملية إلى حد ما ونادراً ما تستند إلى الملاحظة الدقيقة والإثبات. وفي هذا السياق يخطأ العديد من الأشخاص في استخدام كلمة "نظرية" كتساؤل تأملي عن شيء ما لنظرية علمية ويعتقدوا أن العلماء يستخدموا أيضاً كلمة "نظرية" الطريقة نفسها. في الحقيقة أن الاستخدامين لهذه الكلمة مختلفين تماماً.

وكقاعدة فإن النظريات العلمية تشير إلى الملاحظة المنتظمة (الملاحظة التي تتم من خلال استخدام قواعد معينة)، الإثبات المتكرر، والمنطق الدقيق. إضافة إلى أن النظريات العلمية هي "حقائق واقعية متكررة" وتشترك في أنه لا يمكن القول عنها أنها مثبتة. وبالرغم من أن الإثبات للنظرية العلمية قد يحتاج إلى (1000) اختبار، تبقى احتمالية أن الاختبار القادم قد لا يكون داعماً لها وقد تحتاج هذه النظرية للتعديل. فالنظريات إذن وكما سنناقشها لا يمكن أن تكون مثبتة أصلاً، وذلك كون العلماء متحفزين جداً عند استخدام هذه الكلمة، ولكن النظريات دائماً ما تكون مدعومة بالإثبات الملاحظ، ومقولة أن النظرية يجب أن تكون "مثبتة" لتكون صادقة هي أحد الأسباب الرئيسية التي تؤدي إلى سوء فهم النظرية لدى غير العلماء. يتحدث العلماء ضمن سياق الاحتمالية وبالنسبة لهم فإن احتمالية شيء ما أن يكون صحيحاً 95% من الوقت هو الحد الأدنى (عادة معيار standard) لمعيار (criterion) قبولها. وهو الشيء نفسه عندما يقال أن العلماء يفضلوا أن يكون لديهم نسبة حد أعلى 5% من الخطأ في مقولاتهم.

وهناك موضوع آخر في نظرية الجريمة ينطوي تحت التنوع التشاركي للسلوك المعروف بالإجرامي. فعندما نستخدم مصطلح "جريمة" فالمرجعية هنا تكون مدى واسع من السلوك غير القانوني. في حين أن الأفعال الاجرامية الفردية قد يكون لديها القليل من الأمور المشتركة فيما بينها باستثناء أن أحد ما في وقت ما لا يفرق بينها لوضع قانون يجرمها

(بالتبع العكس يحدث أيضا والسلوك الإجرامي يصبح قانوني). أوجه التشابه بين القتل والسرقة البسيطة على سبيل المثال كما هو التشابه بين الصخرة والبرتقالة. وليس لمجرد أن أحد وجد تهديد مشترك - كلاهما أمر مثلاً - يعني أنهما متشابهان إلى حد منطقي.

ومشكلة أخرى تكمن في أن السلوك الجرمي قد يكون بكل بساطة مجرد أحد الاختلافات للسلوكيات المتشابهة. فمثلاً إذا كنا نجادل في أن بعض السلوك الجرمي هو سلوك البحث عن اللذة (المتعة) (thrill-seeking)، إذن فالنظرية التي تتنبأ بالسلوك في هذا الصدد يجب أن تتضمن السلوك القانوني. وبافتراض أن أي سلوك متعلق بالبحث عن اللذة قد يتشابه على الأرجح، فإن ارتكاب جريمة قد لا يكون من المرجح أكثر من ذهاب شخص ما للقفز بالحبال أو القفز المظلي. ومن هذا المنظور بالرغم من أن سلوك البحث عن اللذة قد يكون قابلاً للتنبؤ نسبياً، أي واحد من هذه السلوكيات - الجريمة مثلاً - يبقى غير متنبأ به نسبياً. وعليه، فإن نظريات الجريمة والسلوك الإجرامي يجب أن تستوعب مدى واسع من النشاط الإنساني. ولهذا السبب يحكم بعض علماء الجريمة نظريات محدودة في بعض الأفعال الإجرامية المحددة أو التصرفات المؤذية.

WHAT IS GOOD THEORY?

ما هي النظرية الجيدة؟

بسبب وجود أكثر من نظرية واحدة لتفسير الإجرام في وقت محدد، فكيف نعرف أي نظرية منها هي الفضلى؟ في الواقع كيف نستطيع أن نقول ما هي النظرية الجيدة عموماً؟ الجواب الأكثر شيوعاً هو أن النظرية الجيدة هي النظرية التي يمكن اختبارها والتي تتطابق مع الدليل البحثي (Akers, 2000; Blalock, 1969; Gibbes, 1972) هذا يبدو منطقياً، لأن نظرياتنا علمية ويجب أن تستند إلى الدليل البحثي. في الحقيقة هذه المعايير قد تم اشتقاقها من العلوم الطبيعية، في المكان الذي تستخدم فيه كميّار للنظرية الجيدة. وفي واقع الأمر لا يوجد أي اختلاف بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية لتحديد النظرية الجيدة، في حين أن هناك مشاكل قياس في العلوم الاجتماعية بسبب بعض المتغيرات مثل الطبقة الاجتماعية والتي لا يمكن قياسها بصورة دقيقة كدقة قياس المسافة، والوقت، والصلابة وما شابه. وفي ظل هذه المعايير المقبولة عموماً، فإذا كانت النظرية لا يمكن اختبارها أو حتى إثباتها لا يمكن تحقيقه، إذن فالنظرية غير جيدة. ومع أن هذا الأمر يبدو واضحاً بصورة كافية إلا أنه ليس بهذه البساطة.

لو افترضنا، لدقيقة أن اينشتاين قد عاش وقدم نظريته النسبية من قبل عقدين من زمن تقديمها، فإنها لن تكون قد تم اختبارها في ذلك الوقت، أو أنها لن تتلاءم مع الدليل البحثي. وعلى نحو جلي فان نظريته سوف لا تعد كنظرية جيدة في ذلك الوقت. ولذلك، فالتغيرات في الدليل البحثي وقابلية القياس وإجراء الاختبار يشكّلوا المعيار الأساس العام للنظرية الجيدة. وبعبارة أخرى، ففي بعض الأوقات قد تأخذ فترة من الزمن قبل مقدرتنا لقياس أو إنتاج الإثبات الذي يلحق بالنظرية. وحتى ذلك الوقت، فقد تبدو النظرية سيئة بسبب عدم توافر الإثبات الذي يدعمها. وهذا يعني أننا قد ننبد النظريات الجيدة بسبب أن قدراتنا القياسية لا تستطيع لغاية الآن من اختبارها بطريقة ملائمة وتزويدها بالدعم الضروري. ولهذا وبسبب تغير قدراتنا القياسية والتقنية فربما نحتاج إلى إعادة تفحص وإعادة اختبار النظريات لمعرفة الدليل أو الإثبات البحثي الذي يلائمها بصورة أفضل. شيء واحد يمكننا أن نكون متأكدين منه، إذا لم يكن هناك طريقة حالية لقياس شيء ما، فإنه من غير المحبب أن يظهر في النظرية بغض النظر عن احتمالية أهمية هذا الشيء.

وقضية أخرى تتعلق بالاختبار، هي استخدام الاتجاه الأحادي لقياس المفاهيم النظرية. فإذا ما تم استخدام طريقة واحدة للقياس وكانت هذه الطريقة غير جيدة أو لم تقدم المفهوم النظري بصورة ملائمة، فإن النظرية قد ترفض (حتى لو كانت النظرية في واقع الأمر صالحة). وتبرز مشكلة مشابهة عندما يتم تأكيد النظرية باستخدام اتجاه اختبار منفرد (single-test-approach) أو مقياس. فما تم قياسه قد يولد نتيجة خاطئة، ولكن إذا تم القياس بالطريقة نفسها مرة تلو الأخرى فالنتائج ستكون دوماً نفسها، مما يؤدي إلى إيجاد تأثير خاطئ لاستمرارية النتائج الحالية. فالمنهج والمقاييس المتعددة (multiple Meth-ods) أفضل من المنهج المنفرد.

إذا كان منهجنا لتقييم النظرية يعتمد على القياس والاختبار، فنحن نعد المصادقية الكمية (quantitative validation). منهج آخر يركز على جوهر النظرية ويدعى المصادقية النوعية (qualitative validation). وهذه المعايير النوعية تساعدنا في حل مشكلة معينة في وقت ومقياس الإثبات البحثي، وتتضمن العديد من العوامل مثل المتانة (السلامة) المنطقية (logical soundness) وإمكانية إعطاء معنى وعقلانية للعديد من المواقف المتعارضة، وإلى أي درجة يمكن للنظرية توعية الناس لأشياء قد يراها الآخرون بصورة مختلفة. في حين أن هذه المعايير قد لا تذكر في الغالب، إلا أنها لا تقل أهمية لغايات المنفعة من النظرية ولا تقل

أهمية من الاختبارات الكمية. ومعظم نظريات علم الجريمة لا تعمل بصورة جيدة على معيار الفحص الامبريقي. ومن جانب آخر معظم هذه النظريات تكون ذات حس عقلائي في الأمور التي كانت تحير الناس من قبل، وأدت إلى توعية علماء الجريمة إلى طرق جديدة ومهمة في البحث ودراسة ظاهرة الجريمة. ودعونا نستكشف هذه المعايير الكمية على نحو أكثر دقة.

تعني المتانة المنطقية أن النظرية لا تطرح أي علاقات غير منطقية وأنها متناسقة داخلياً. أحد المشاكل المنطقية الأكثر شيوعاً هي الترتيب الزمني، عندما يحدث حدث ما بعد آخر يفترض أن يكون سبباً للحدث الأول، فمثلاً إذا سألنا مستخدم المارجوانا عن فرصة إلقاء القبض عليهم، فسوف يجيبوا على الأرجح أنها منخفضة، وهذا قد يدعونا إلى التفكير أن الأشخاص يستخدموا المارجوانا بسبب اعتقادهم أن فرصة إلقاء القبض عليهم قليلة جداً (بمعنى أنه لا يتم ردعهم). إلا أنه في واقع الحال أن التقدير المنخفض لفرصة الاعتقال ما هي إلا انعكاس واقعي لحقيقة أنهم قد استخدموا المارجوانا لمرة عديدة ولم يتم اعتقالهم. إذن التقدير المنخفض للاعتقال جاء بعد استخدامهم المارجوانا ولم يكن المسبب. وبمثال أكثر عمومية عن المتانة المنطقية، إذا قام شخص ما بتفحص دليل أن المجرمين في مؤسسة خاصة بالمختلين عقلياً لديهم أنماط تفكير غير عقلانية تسبب السلوك الإجرامي، فإن النظرية ستكون غير منطقية. هناك العديد من المختلين، الذين يودعون المصححات العقلية هم مختلفين بطبيعتهم. وفي الحقيقة إذا كانت هذه النظرية صحيحة، فإن مؤلف النظرية سيجد نفسه متورطاً في التفكير غير العقلاني وقد نتوقع أن يصبح هو/هي من المجرمين. وفي مثال آخر استخدم كل من ديفلور وكويني (DeFleur and Quinney, 1966) نموذج خاص للمنطق يسمى "نظرية المجموعات" (set theory) لتحليل المتانة المنطقية لواحدة من أشهر النظريات في السلوك الإجرامي (وقد وجدوا أنها متناسقة داخلياً).

وتعني إمكانية إعطاء معنى في المواقف المتعارضة عندما يتضمن الإثبات حقيقتين متعارضتين فإن النظرية التي تستطيع احتواء تلك الحقائق تعد نظرية جيدة وأفضل من وجود نظريات مختلفة لتفسير كل حقيقة. فنظرية الرابطة التفاضلية (الفصل الخامس) مثلاً تجمع معاً مفاهيم مناطق التفكك الاجتماعي، التفاعل المنظم في المجموعات الحميمة الصغيرة وأثرها على معدلات الجريمة ضمن مجموعة متباينة من الأشخاص. ومثال آخر حيث تقدم إحصائيات الجريمة الرسمية ودراسات التقرير الذاتي (التي تسأل الأشخاص عن ماذا فعلوا) صورتين مختلفتين عن "المجرم". تعطي نظرية الوصم (الفصل الثامن) معنى

لشكلي الدليل من خلال الإشارة إلى الإحصائيات الرسمية التي تعطي صورة عن أولئك الأشخاص الذين يتم التعامل معهم كمجرمين فقط، وتتناول دراسات التقرير الذاتي التي الأشخاص المجرمين رسماً والذين لم يتم إلقاء القبض عليهم. الفيلسوف المعروف ومؤرخ العلم توماس كوهين (Thomas Kuhn, 1970) قال أن تعطي النظريات الجديدة المقبولة معنى دوماً للدليل التصارعي والتي لم تستطيع النظريات القديمة تفسيره.

تشير قدرة التحسس (Sensitizing ability) إلى تركيز انتباه الناس إلى اتجاه التساؤل الجديد أو حتى الذي تم نسيانه حول حقيقة يعرفونها، أو تقترح طريقة مختلفة للنظر إليها وتفسيرها. فنحن نركز في بعض الأحيان بصورة قوية على اتجاه محدد لتفسير الجريمة، ونحتاج للتذكر أن هناك اتجاهات أخرى للنظر إليها. قيمة واحدة لتحسس النظرية هي أنها تخدم علماء الجريمة لإعادة معرفتهم بالحقائق الأخرى المتعلقة بالمشكلة. وباستخدام نظرية الوصم مرة أخرى للتوضيح، حيث كان المنظرين في 1950 يركزوا على المنحرفين من الطبقة الدنيا والريفيين والذكور والعصابات المنحرفة وأن كل الانحرافات ما هو إلا نتاج هذه الفئة من الأطفال. أوجد الوصم حس لعلم الجريمة لأهمية التساؤل عن المدانين بالجرائم وكيفية رد فعلنا حيالهم، مما يخدم بتذكير علماء الجريمة أن هناك فئات معينة من الناس يمكن مراقبتهم عن كثب ويتم اعتقالهم. وبكلمات أخرى خلقت نظرية الوصم حس علماء الجريمة لحقيقة أن الإجرام يكون بناءً على ردة فعلنا تجاه الأشخاص كما هو لسمااتهم الشخصية. كما أن هناك تفسير آخر لانحراف الذكور من الأقليات والريفيين أكثر من ضغوط البناء الاجتماعي.

وأخيراً هناك معيار نوعي آخر يستحق المناقشة مختلف عن المعايير السابقة، يجب استخدامه مع الكثير من الحذر وهو الشهرة (popularity)، وببساطة إذا أصبحت النظرية مشهورة وشائعة بين علماء الجريمة، فهي تبدو نظرية جيدة تعريفاً. والمشكلة هنا أن شهرتها جاءت من عوامل متنوعة، والتي قد يكون بعضها القليل من المعايير التي تم ذكرها. فقد تعبر النظرية مثلاً عن مشاعرنا بمستوى جيد عن أسباب الجريمة، ويعطيها المصدقية بغض النظر عن متانتها المنطقية والدعم الامبريقي. يجب الانتباه لهذه المشكلة واقعياً، ان فكرة أن شيء ما صحيح بسبب الشعبية التي يتمتع بها هو خطأ كبير يقع فيه الناس العاديين. ومع ذلك فالشهرة يجب أن تكون أحد المعايير لتحديد النظرية الجيدة، بسبب أن نظريات علم الجريمة لا تحقق متطلبات إمكانية الفحص جيداً وأنها لا تزال شائعة.

النظرية الجيدة إذن، هي ذات البناء المنطقي، وتعتمد على الدليل ومدعمة بالبحث المتسلسل. يجب أن لا يتعارض الدليل الامبريقي مع الايدولوجية الشخصية مثل التعاطف الديني والميول السياسية أو ما تريده رموز السلطة. يتيح تطور النظرية لنا تحسس الحقائق المتنوعة، ويجعلنا أكثر وعياً بالظروف المحيطة بالظاهرة المراد تفسيرها. ويجب أن نضع نصب أعيننا عند تقييم صلاحية النظرية المشاكل المرتبطة بكل معيار من المعايير والمرونة في اتخاذ الحكم النهائي.

KINDS OF THEORY

أنواع النظرية

قبل الخوض بمناقشة أنواع النظريات، يجب أن نفرق بين الشكليات العاميين للنظرية وهما وحدة النظرية (Unit Theory) وما وراء النظرية (Metatheory) (انظر واجنر 1984) ويتناول هذا الكتاب وحدة النظرية. تركز وحدة النظرية على مشكلة محددة (الجريمة مثلاً أو الجنوح) وتقدم نظريات مفحوصة عن المشكلة. بالمقابل قلما أو نادراً ما تكون وراء النظريات قابلة للفحص، ويمكن عدها طريقة لبحث الواقع وتفسيره. وبمعنى آخر يمكن ان تعد "نظريات عن النظريات" فهي تناقش أنواع المفاهيم وطريقة بناء وحدة النظرية. فمثلاً قد يحدد ما وراء نظريات علم الجريمة أن تفسيرات السلوك الإجرامي الذي يركز على المفاهيم الاجتماعية أكثر من المفاهيم البيولوجية والنفسية، ويجب ان تستخدم الطبقة الاجتماعية كمتغير مستقل، إضافة إلى أنها قد تحدد الأساليب الإحصائية الرسمية الواجب استخدامها كدليل مناسب لنظريات الوحدة، والجيد منها يجب أن يتطور ضمن الانموذج المفاهيمي. فتستعمل كلمة "نظرية" في أغلب الحالات لنعني بها وحدة النظرية، أي نسقط كلمة "وحدة" ونبقي كلمة نظرية، وعندما نقصد ما وراء النظريات نستعمل مصطلح "ما وراء النظرية".

هناك أنواع مختلفة من النظرية، ولكن لا يوجد مخطط فردي مقبول يمكن أن يصف أنواع النظرية. وكما لو ان مشكلة فهم النظريات المختلفة ليست صعبة كفاية، ولقد صعب سعي الكتاب لجمعها وفق بعض فروقها البسيطة، ومن المفارقات ان ذلك قد جعل القضايا أسوء بجعلهم هذه الفروقات تبدو الخصائص الأكثر أهمية لجميع النظريات. وعلى الرغم من ذلك فان تجميع النظريات وتصنيفها ليس بالمسعى السهل.

ولان النظريات معقدة، لان الموضوعات التي تتسجها ليست دائماً ذاتية الاثبات، ويمكن تصنيف النظريات بطرق عديدة. فقد يقرأ طلاب علم الجريمة كتاباً في النظريات ويعتقدوا أنهم يعرفوها جيداً، ثم يبحثوا في كتاب آخر فيجدوا انه قد تم تصنيفها بطريقة مختلفة مما يسبب لهم حالة من الإرباك. في الواقع يقدم كل كتاب في علم الجريمة لفة ما لتصنيف النظريات. في الغالب، يستخدم نظام من ثلاثة انواع من النظريات: البيولوجية والنفسية والاجتماعية (ولقد كرست اغلب تغطيتهم للاتجاهات الاجتماعية). وضمن مناقشة النظريات الاجتماعية، هناك ميل إلى تقسيم المناحي النظرية إلى اتجاه العمليات الاجتماعية واتجاه البناء الاجتماعي (Adler, Muller, & Laufer, 2004; Curren & Renzetti, 2001; Reid, 2003; Vito, Maahs, & Holmes, 2007) طرق أخرى استخدام نماذج مختلفة للتصنيفات السيسولوجية والاجتماعية النفسية أو مناهج متنوعة موسعة مع تصنيفات فرعية (Beirne & Messerschmidt, 2006). يشعر بوجود هذه المناهج المختلفة الطلاب بأن مدرسهم لا يعرف شيء عن الموضوع إلا إذا استخدم المخطط الموجود في الكتاب الذي يدرسه. وبكل وضوح فإن تصنيف النظريات قد يشوش الطلاب المبتدئين ويعد مشكلة أيضاً للباحثين المتخصصين في علم الجريمة.

وبما أن هذه التصنيفات موجودة، فلا بد من التعامل معها مع ملاحظة عدم وجود تصنيف حقيقي وذلك لأن العالم غير موجود بصورة أبيض وأسود، وهناك العديد من العوامل الواجب اتخاذها بعين الاعتبار، والنتيجة هي وضع النظريات ضمن فئة أو أخرى. علاوة على ذلك، إن التغيير في تصنيف النظريات من شأنه أن يؤدي إلى النظر إليها من زاوية لم يقصدها مؤلف النظرية. وبغض النظر هكذا تتويع يعد جيد، والسبب وراء تصنيف النظريات هو لبيان أوجه التشابه والاختلاف فيما بينها ويعني أن النظريات غنية وتحتوي على العديد من الفروقات والمفاهيم والأفكار القيّمة.

قد ناقشنا ثلاثة مناهج مختلفة لتميط النظريات. ونأمل أنها ستساعد الجدد في علم الجريمة في فهم العلاقات والارتباطات بين النظريات المختلفة. وبالوقت نفسه، التحذير وفق التسلسل: عامل كل مخطط تصنيفي على انه ليس اكثر من محاولة للتركيز على التشابهات والاختلافات. وان هذه المخططات ليست للاستخدام على انها نهاية المطاف في التضنبف، او تكوين انماط للنظريات.